احمد زين الدين

قراءة جديدة لرواية (الخندق الغميق)

تمهيد:

يُعتبر (*) الدكتور سهيل ادريس من اكثر الروائيين العرب اهتماما بابراز تجاربه الشخصية، وتفاصيل حياته الخاصة، ووجوه نشاطاته الفكرية والادبية، وميوله الشخصية والعاطفية.

واذا كان لا يضير الروائي أن يختار تجربته الحياتية المباشرة مادة لرواياته واقاصيصه لانه الاقدر على فهم مساربها وسبراغوارها، والاصدق تعبيراً عن خوالجها واحاسيسها، فان هذا الاختيار يحمل في ثناياه خطر الانحراف عن السياق الروائي الى سياق السيرة الذاتية، والخروج عن الاصالة الفنية الموضوعية الى الاجترار الذاتي، والى تسخير اشكال التقنيات الروائية كستار يحجب ذاتية المؤلف العارية. هذه الذات التي تنمو وتتضخم على حساب شخوص الرواية، فلا يرى القارىء عالم القصة الا من خلالها، ولا يحس الا بحركتها، وهي تتمدد على جميع مساحات الرواية. واذا تحركت بقية الشخوص فمن اجل خدمتها تتحرك، واذا تحدثت فبلسانها تنطق، وعن افكارها وهواجسها تعبّر. كما ان القصة تفقد بُعدها الثالث، اي تضمحل تلك المسافة التي تفصل بين شخصيات الرواية من جهة، وتذوب الحدود بين الروائي وبين ابطاله من جهة اخرى.

وباختصار فان سيرة الحياة تختلف عن الرواية. « فالاولى هي الحياة نفسها بلا تشذيب، واما الثانية فهي الحياة مصوغة في اطار فني، وذلك يخضعها لكثير من الحذف والتركيز والتلوين لكي يكتمل العمل الادبي»(١)

(*) المقالة جزء من رسالة الماجيستر التي يعدها الكاتب عن الرواية اللبنانية بعد الحرب العالمية الثانية.

١ ـ نازك الملائكة: « الخندق الغميق » لسهيل ادريس ـ الآداب ـ ص ١١ ـ مارس ١٩٦٠.

فالمطلوب اذا في اية قصة ليس الصدق الواقعي وانما الصدق الفني، والقدرة على اخضاع الواقع لضرورات الفن.

والرواية التي بين ايدينا « الخندق الغميق » ـ ١٩٥٨ ـ من هذا النوع الذي ربما صحت تسميته بالرواية ـ السيرة. اما مادة هذه الرواية فمادة مركبة، اذ ان الكاتب استوحى فكرتها من كتاب « الايام » لطه حسين، عندما وقع هذا الكتاب بين يديه وهو حدث في العاشرة من عمره، فاعجب به أشد العجب وتمنى لو تسنح له الظروف لان يختبر مجددا مثل هذه الحياة التي عاشها الصبي طه حسين. وقد قَدر للمؤلف وبتأثير من قراءته للكتاب ان يلتحق بالمعهد الديني الذي اسسه مفتي الجمهورية « الشيخ خالد » باسم كلية فاروق الشرعية وذلك عام ١٩٣٦ وكان في الحادية عشرة من عمره آنذاك.

ويقول سهيل ادريس نفسه عن ظروف التحاقه بالمعهد الديني: « انه كان مقودا برغبة مكنونة في النفس وهي ان يعيش التجربة التي عاشها ذلك الفتى (طه حسين) وان يعاني معاناة حقيقية ظروفها ومؤثراتها » (٢).

وقد غرب عن بال النقاد الذين تناولوا الرواية (٣) صلة القرابة الفكرية والوجدانية بينها وبين « الايام »

٢ ـ د. سهيل ادريس: « شهريات رئيس التحرير » ـ الآداب ـ ص ٢ ـ مارس ١٩٧٤.

٣ ـ اذكر منهم: ميخائيل نعيمة، يوسف الشاروني، نازك الملائكة، سميرة عزام، غالي شكري، وغيرهم، عدا رئيف خوري الذي لمح الى ذلك تلميحا عابرا. راجع في هذا الشأن ايضا « في الغربال الجديد » لميخائيل نعيمة ومقالة سميرة عزام في الآداب ـ ابريل ١٩٦٠ حول الرواية.

وهكذا كان كتاب طه حسين هو النموذج الذي احتذاه المؤلف وهو يصوغ روايته « الخندق الغميق » واضحت التجربة التي استهوته سابقا ، والتي كانت تقع خارج عالمه ملتصقة في اعماقه ، وعنصرا رئيسيا من عناصر تكوينه السيكولوجي والذهني ، مصبوغة بالوانه الذاتية والشخصية . ولم تعد اجترارا ، وانما هضم وتمثل ، ولا امتدادا وانما تحوّل عميق وتكوّن جديد ، ولا تقليدا باهتا لمشهد مكرر ، ولكن لفظة جديدة ومن زاوية جديدة .

وعندما نقف في الرواية على بعض المواضع نجد فيها ثغرات فكرية وسلوكية غير مبررة ولا تتوضح حقيقتها الا بالعودة الى النموذج المستوحى اي « الايام » واهم هذه المواقف الغامضة التي تشكل نقطة انطلاق الحدث الروائي الذي سينمو فيما بعد عبر فصول الرواية تعليل الدافع الحقيقي لالتحاق « سامي » بطل الرواية بالمعهد الديني . فهو لم يتشكل فقط بتأثير الجو الديني الذي يحيط بالبطل حيث يعيش في اسرة يؤمن ربها بان انخراط اولاده في سلك الشيوخ هو اسمى الاهداف وانبل الغايات عنده . ولا بتشجيع الفتى على الاشتراك في السهرات الدينية التي كانت تقام في منزلهم كل شهر ، وحثه على حفظ آيات القرآن والاحاديث الدينية . ولو كان ذلك وحده السبب لكان من الطبيعي اكثر ان ينخرط اخوه « فوزي » في هذا السلك لانه الابن الاكبر الذي يجسّد في شرقنا العربي الطموح الابوي ومستودع مثالياته .

ولا هو كما اعتقد نتيجة حادثة السرقة العابرة ومطاردة الشيخ الكسيح له التي خلفت في نفسه الرعب الشديد وسببت له المرض ، ثم انبثاق هذه الرغبة الشديدة وبشكل مفاجيء لان يصبح شيخا : « ابي .. ارجوك .. ارجوك يا ابي .. اني اريد ان اصبح شيخا (٤) .

فهذه الحادثة بما خلفت له من آلام وكوابيس مفزعة حرمته النوم كانت حرية ان تنفره من فكرة المشيخة ومن مرأى الشيوخ .

وليس السبب الحق لدخول سامي المعهد الديني ما تراه نازك الملائكة وهو ان البطل قد الف ان يكون ولدا مطيعا وان يقدس طاعة الاب ، ويضعها فوق كل شيء . ولقد كان شاعرا بأن اباه يريده شيخا فلم يكن له مفر من ان يحقق له رغبته مهما كلفه ذلك . (٥) لانه ليس في سيرته السابقة على دخوله المعهد ما يدل على تقديس هذه الطاعة . فالرواية تخبرنا في الفصل الاول كيف ان سامي لم يكن ينتظر ان يقوم « الجماعة » عن طعامهم ليأكل ما تركوه ، بل اندس بين رجلين اخذا يربتان على كتفه ، وراح يأكل كما يأكل الجميع ، غير عابيء بانظار ابيه .(٦)

واذا كانت هذه الاسباب الآنفة تحمل عناصر ايجابية ومنطقية فانها غير كافية لان تشكل النواة الدافعة لخوض غمار هذه التجربة .

فالقوة الدافعة الوحيدة هي تأثر الكاتب العميق بكتاب « الايام » ومحاولة اعادة اختبار هذه التجربة ، وربما كانت التقاليد الدينية المغلقة ، ونوعية التربية الاسرية المتزمتة التي كان يعيش في كنفها الصبي قد حبّبت اليه هذا المؤلف فلاقى هوى في نفسه ، وملك عليه مشاعره وعواطفه الصبيانية .

ولو تساءلنا عن السبب الذي جعل الكاتب يغفل عن ذكر هذا الكتاب في روايته مع ما له من موقع حسن في نفسه واهمية في حياته لكان قريبا من الصواب القول: بأن الكاتب حاول ان لا يشير الى ذلك حفاظا على اضفاء الطابع الموضوعي المستقل على الرواية خاصة انها ليست سيرة ذاتية محضا بل هي تطمح لان تكون رواية ذات ملامح فنية متكاملة الابعاد تمتح بعض وقائعها من حياة الكاتب نفسه ، ولكنه يحاول اعادة تشكيلها وتوزيعها وتركيزها بما يلائم الغاية الفنية والفكرية التي طمح لتصويرها . والاشارة الى هذا الكتاب كانت ستحدث حتما خللا فنيا في الرواية وستجردها عن جديتها وتفرّدها .

ورواية « الخندق الغميق » لذلك تحمل سماتها الروائية الخاصة التي تطوّرت وتحركت ونمت عبر احداث القصة الدرامية . ولكنها تحمل في فصولها الاولى مع بداية تدرج الحدث الروائي مناخات شبيهة بمناخ « الايام » .

فوصف حلقات الذكر والسهرات الدينية التي كان يُقرأ فيها القرآن وفصول السيرة النبوية وكتاب « دلائل الخيرات » يذكرنا بزيارات اصحاب العالية والسافلة من مشايخ الطرق لبيت اهل الصبي في « الايام » .

ووصف الجو التعليمي في المعهد ، وطريقة التدريس البالية التي كان يتبعها الاساتذة التي يقول عنها الكاتب انها كانت تقذفهم في حيرة وتململ شديدين ، ومثال ذلك « ان المدرس ابلغهم اول الامر ان هناك ما يزيد عن ثلاثمئة الف حديث منسوبة الى النبي وهي زائفة ، وانه لن يدرسهم الا الاحاديث الصحيحة ، ولكنه مع ذلك كان يأتيهم كثيرا بما يشبه الخرافات على

---

٤ ــ رواية الخندق الغميق ــ دار الآداب ــ الطبعة الثانية ١٩٧٢ ــ ص ١٨ .

٥ ــ نازك الملائكة : المصدر نفسه ــ ص ١٥ .

٦ ــ الخندق الغميق ــ ص ٨ .

انها من صحيح الاحاديث ، وكان يشرحها لهم شرحا غريبا لا يطمئنون اليه ولا يثقون به (٧) كما انهم كانوا « يدرسون الفقه في كتاب ضخم لا يترك شأنا من شؤون الانسان ، صغيرها وكبيرها الا اورده ، حتى اصبحوا يعتقدون بان هذا الكتاب يغني عن كل كتاب آخر .. ومع ذلك فكثيرا ما كانت تغيب عنهم الحكمة من بعض احكام الدين ، فاذا توجهوا في ذلك الى مدرس الفقه ، ادلى لهم بما لا يقنعهم غالبا واكتفى بان يقول: « ولا تسألوا عن اشياء ان تبد لكم تسؤكم » . بل كان كثيرا ما يجيب : « ابني ، هكذا انزل الشارع ! » (٨) . اما المنطق « فكان المدرس يحفظه فيردده عليهم احكاما وقواعد جافة لا يمثل لها بشيء في حياتهم ، فتظل نظريات مجردة لا يتذوقونها ولا يأنسون اليها » (٩) .

الا تعيد لنا هذه الاجواء التجهيلية المتخلفة ، البعيدة كل البعد عن النقاوة الدينية الروحية ، صورة « الازهر » القديم الذي رسمه طه حسين في « ايامه » اعمق وادق ما يكون التصوير ؟ فكأننا نصغي مجددا مع الصبي الى معلميه « فلا يفهم معنى لهذه الاسماء ولا لتتابعها . ولا لهذه « العنعنة » المملة ، فيتمنى ان تنقطع هذه « العنعنة » وان يصل الشيخ الى الحديث ، فاذا وصل اليه سمعه الصبي ملقيا اليه نفسه كلها فحفظه وفهمه ، واعرض عن تفسير الشيخ ، لانه كان يذكره ما كان يسمع في الريف من امام المسجد ، ومن ذلك الشيخ الذي كان يعلمه اوليات الفقه . (١٠) .

شخصيات الرواية

واذا حاولنا تحليل شخصيات الرواية لوجدنا ان شخصية سامي بطل الرواية تطغى على بقية اشخاص القصة ، فنحن لا نرى العالم الروائي ولا بقية الشخصيات الا من خلاله . وهذا طبيعي في رواية لا تنهل وقائعها وحوادثها وشخوصها الا من ينبوع واحد هو حياة المؤلف نفسه الذي لا يترك في بعض الاحيان حتى التفاصيل الزائدة التي لا صلة لها بنسيج الرواية الا ذكرها .

وسامي يتمتع بسمات ومزايا منفردة تتفتح وتتشقق فينمو من خلالها خط الصراع الدرامي ويتطور . فشخصيته هي التي تحرك الاحداث بقدر ما يصطدم هذا التفتح بدائرة الاب : دائرة القيم التي جمدتها قرون طويلة من التخلف والانحطاط الفكري والاجتماعي ، ويتحول الصدام الى صراع بين شكلين من اشكال التفكير ، وبين جيلين « احدهما تتبلور في جبته وعمامته كافة القيم ، والآخر يعايش خلخلة هذه القيم الجامدة التي هي التعبير عن خلخلة النظام الاجتماعي القديم » .. (١١) . ولكن رغم نقاء الثورة التي تعتمل في صدر البطل فان دوافعها ومبعثها يخالطها الابهام والغموض . ونتساءل: اهي من النوع الذي يحسه المراهق في سن معينة اذا حيل بينه وبين من يحب فيثور ويحطم ؟ وبطلنا احب جارته « سميا » واخلص لها الحب وكانت ثورته طبيعية حينما وقف الاب بينه وبين عاطفته ــ ام انها تمرد فكري مدروس نتيجة الصراع في نفسية سامي بين « الواجب » و « الحياة » حيث ان الاتجاه الذي سار عليه خط النمو والتكامل لدى سامي قد بدأ بفكرة « الواجب » الذي كان سامي يعده اقدس شيء في الحياة ، وانتهى بفكرة «الحياة» التي اصبح سامي يعدها فوق الواجب وفوق كل شيء ؟ (١٢) .

ومهما تكن نوعية هذه الثورة ومبعثها فانها تبقى ضمن حدود الدين . فالثورة ليست اغارة على القيم الدينية والمعايير الاخلاقية التي تواضع عليها المجتمع ، ولا هي تهدم الاسس الاجتماعية والفكرية التي يقوم عليها ، بل هي في تجديد هذا البناء ، وتشذيب القيم الدينية من الشوائب وازالة الرواسب المتخلفة والقشور العالقة بجوهرها . وهدم كل العوائق والسدود التي تحول بين الانسان وربه ، مما يتيح لمؤمن مثل سامي مثلا اذا استبد به الشوق يوما الى حبيبته ــ سميا ــ ان ينهض فيتوضأ ويصلي ركعتين ، ويرفع يديه في الركعة الثانية الى السماء ويصعّد من اعماقه نداء حارا الى الله ان يحفظ له حبيبته وان يجمعهما في اقرب فرصة .. ثم يأوي الى سريره قرير العين (١٣) .

وثورة بطل « الخندق الغميق » تبدو لي اكثر اصالة وعمقا من ثورة بطل « الايام » حيث تظل هذه حبيسة المشاعر والوجدان رغم انها تختزن كمية كبيرة من المرارة والتوتر والقلق والنقمة على الرياء الديني الذي كان سائدا آنذاك . فالصراع في « الايام » خفي ، داخلي وبطيء ، اما في « الخندق الغميق » فمتفجر وخارجي وسريع الايقاع ، ويعود ذلك الى ان المجابهة في قصة سهيل ادريس مجابهة عارية وصاخبة ، فالاب يصطدم بابنه اكثر من مرة وينال من شتائمه وصفعه وغضبه

٧ ــ الخندق الغميق ــ ص ٤١ .

٨ ــ الخندق الغميق ــ ص ٤٠ .

٩ ــ الخندق الغميق ــ ص ٤١ .

١٠ ــ طه حسين : الايام ــ الجزء الثاني ــ دار المعارف بمصر ــ الطبعة ١٦ ــ ص ٢١ . ــ

١١ ــ غالي شكري : العمامة تاج العرب ــ الآداب ــ ص ٣٣ ــ اكتوبر ١٩٥٩ .

١٢ ــ نازك الملائكة : المصدر نفسه ــ ص ١٤ .

١٣ ــ الخندق الغميق ــ ص ٨٨ .

الكثير (١٤) . والعلاقة بينهما علاقة توتر دائم وتحد مستمر . اما في « الايام » فالاب اكثر مرآعاة لمشاعر ابنه واحتياطا في معاملته نظرا لظروف علته .

الاب في قصة ادريس لا يحمل ملامح انسانية متميزة، و عاطفة ابوية صادقه ، بل هو نموذج احادي البعد ، نموذج التعصب والتزمت الفكري والاخلاقي الذي يسحق التفتح والاستقلال ، ويقضي على كل انحراف عن الاسس والقوالب الجامدة التي يتقولب ضمنها . هذا الاب ينقصه الحب الحقيقي لاسرته ، اننا لا نراه يختلج نحوها باي شعور حقيقي ، حتى انه حين رأى سامي وقد شجّ رأسه ورقد متألما على السرير لم تبدر منه ولو نبضة حنان وانما راح « يحوقل » ويلقي عليه موعظة حول ما يجب ان تكون عليه اخلاق شيخ ابن شيخ مثل سامي .. وهو يعتبر ان اولاده « ملك » له ، عليهم ان يعيشوا لمجرد ارضائه ولو كلفهم ذلك أن يخونوا ميولهم وعواطفهم وفطرتهم .(١٥) .

والاب كما يتمثل في الرواية هو الانا العليا الزاجرة، الناهية التي هي حصيلة كل المرحلة التاريخية السابقة ، والامتداد الطبيعي للمفاهيم السكونية التي كانت سائدة .

اما الاب في « الايام » فانسان يحمل بين ضلوعه عاطفة الابوة وروح التسامح رغم ضيق افقه الفكري . ويحوي في نفسه بذور الخير والشر ، وصفات الضعف والقوة .

ونراه في « الايام » رغم تمسكه بالتقاليد الدينية المتوارثة يعيد على مسمع الناس مفتخرا كيف سخر ابنه من قراءة « دلائل الخيرات » ومن زيارة الناس لاضرحة الاولياء ــ هنا تنتصر العاطفة الابوية على ما عداها .

من اجل هذا فان محور الصراع الدرامي يدور في « الخندق الغميق » بين القطبين المتعارضين ، المتنافرين ، بين الاب من جهة والابن من جهة اخرى . اما محور الصراع في « الايام » فانه ينحرف عن هذا الاتجاه ويتحول الى نزاع خفي بين الصبي وبين بيئته الدينية والفكرية المتزمتة التي تقتل فيه الابداع والانطلاق .

اما العنصر النسائي فيختفي او يكاد في « الايام » على حين يبرز هذا العنصر ساطعا في « الخندق الغميق» مضفيا على الرواية جوا حيويا متحركا ومتفردا :

ــ الام : مع هزال موقفها ومحدودية حركتها التي فرضتها البيئة التقليدية عليها تظهر اكثر واقعية وانسانية من زوجها . فهي بعيدة عن ان تكون نموذجا واقرب الى ان تكون انسانة ذات ملامح شخصية وطبيعيه . وهي اكثر عطفا وقدرة على فهم وضعية ابنائها ، وتقبلا لواقع التطور حيث تقول لابنتها هدى :«اني افهم موقفك يا هدى . ان جيلكن غير جيلنا ..» (١٦) .

كما انها لا تتوانى حين يمتنع زوجها عن دفع الاقساط المدرسية لابنته ليمنعها من اكمال تعليمها ان تسرع الى سامي الذي اخذ على عاتقه دفع اقساطها . هامسة اليه . « لا تحمل هما بشان اختك يا بني .. سوف ابيع احد اساوري الذهبية لنستعين بثمنه على دفع اقساط هدى » (١٧) .

ــ هدى : تحمل ملامح الجيل النسائي الجديد الذي سيواكب جيل الرجال لبناء مستقبل الوطن . ورغم حذرها وتهيبها في الافصاح عن عواطفها الحقيقية بسبب الكبت الذي تعانيه فانها تمضي لتشق طريق مستقبلها بكل تصميم وجرأة ، متسلحة بالثقة التي منحها اياها شقيقها ، وبالصراحة العميقة التي وسمت علاقتها به، وبالتشجيع الذي لاقته منه فيما يخص رباطها العاطفي مع « رفيق » ضمن الدرب المشروع .

فهدى المتحررة ، الناضجة التي استطاعت بتشجيع اخيها ان تنزع الحجاب عن وجهها ، والغشاوة عن عينيها هي الوجه الاخر من الميدالية . هي الدورة المكملة لدورة التحرر ، تحرر الجيل الجديد رجالا ونساء من كل ما يعوق مسيرته المظفرة . فلن تكتمل حرية سامي الا بحرية هدى، ولن ينطلق سامي الى هدفه ما دامت هدى رفيقة دربه متخلفة عنه مكبّلة باصفاد الجهل ، ومقيدة الى سلاسل التخلف . وعندما يقول سامي لاخته عند باب قاعة الامتحان :

« انك بحاجة الى ان تنظري امامك جليا » . تدرك هدى مقصده فورا فتمد يدها وتنزع عن رأسها ووجهها الحجاب ثم تسلمه اياه فيتناوله ثم ينظر اليها مبتسما ويقول : « اتعرفين عمامتي ؟ .. انه يذكرني بها !» (١٨).

فالعمامة كما الحجاب كلاهما يعوقان سيرة الجيل نحو غده الافضل لا باعتبارهما ردائين يرتديهما الرجل والمرأة بل لكونهما رمزين للتخلف والتأخر في المجتمع العربي .

ــ سميا : واذا كانت المرأة ــ الاخت قد ظهرت في الرواية وكأنها تنتظر الخلاص على يد الرجل ــ الاخ لتنطلق معه في مسيرة المستقبل المشرق ، فانها تظهر في الرواية نفسها وفي موقع اخر ، موقع المرأة ــ الحبيبة التي تحرّض على الثورة والتمرد وتحفز اليهما ، ورغم ان

---

١٤ ــ انظر خاصة في الفصول ١٠ و١١ و ١٢ و١٣ من القسم الاول من الرواية ، والفصل الثاني من القسم الثاني .

١٥ ــ نازك الملائكة : المصدر نفسه ــ ص ٧٨ .

١٦ ــ الخندق الغميق ــ ص ١٦١ .

١٧ ــ الخندق الغميق ــ ص ١٣٤ .

١٨ ــ الخندق الغميق ــ ص ١٦٥ .

سميا ـ الحبيبة لا تملك اية خلفية فكرية تناقض القيم والتقاليد الفكرية السائدة الا انها كانت المعول الذي هدم هذه القيم في داخل حبيبها الشيخ سامي ، والشرارة التي اشعلت اوار الحرب في نفسه .

وهذه العملية التهديمية لم تتم بسهولة في نفس سامي فهو قد حاول في بادىء الامر امام احساسه بالتناقض بين رغبته في ان يعيش حياة طبيعية وعفوية تنمو فيها مشاعره وعواطفه بحرية وبين واقع متحجر يخنق انسانيته ويلجم عاطفته ان يلجأ الى المصالحة بين هدين الطرفين المتنافرين والقطبين المتناقضين فيشق طريقا ثالثة تجمع هذين الحدين دون ان يتفجرا في نفسه . أليس في اجابته على استغراب سميا حين لمحته يقرأ في رواية فرنسية : « انني شيخ « مودرن » (١٩). نوع من هذه المصالحة بين الدين والحضارة ، ومن التوفيق بين التقاليد الدينية والمعاصرة ، ولان هذه المصالحة تحمل في احشائها بذور تصادمها ، وعناصر تفتتها وتهدمها ، ولا تستطيع ان تخفي وجوهها المتناقضة فانها تنهار عند اول تجربة . فحينما يحاول الشيخ سامي مرة ان يرافق سميا تتمنع قائلة : لا .. ارجوك .. لا تذهب معي !

فيسألها وقد بدأت الخيبة ترتسم على وجهه :ولماذا؟

فلا تجيب ثم تتراجع على مهل قائلة : ارجوك .. لا تذهب معي .. انت شيخ .

وحين يعود الى بيته يحس للجبة والعمة للمرةالاولى منذ ارتداهما بالكره والنفور (٢٠) .

ـ وسميا في مستهل الرواية تبدو للقارىء رمزا ساطعا وشخصية جريئة ، مخلصة وعفوية ولكنها في القسم الثاني من الرواية تبهت صورتها ويتضاءل بريقها فتغدو امرأة عابثة ومتصنعة تواعد سامي على اللقاء لا تجديدا للعهد الذي ما زال يتذكره الحبيب باحساس دافىء ويتمثله دنيا عجيبة من الاحلام والرؤى ، بل تزجية لاوقات الفراغ ومفاجأته بخبر زواجها وانضمامها الى المجتمع الارستقراطي ، واضعة بذلك حدا لاحلامه الطفولية وانتظاره العقيم .

الاسلوب :

مما يؤخذ على الرواية بشكل عام انها تفتقد الحس التاريخي والمحلي ، فهي لا تعكس لا الوضعية الاجتماعية التي يعيش ضمنها ابطال الرواية ،ولا الحركةالديناميكية العاملة في داخل هذا المجتمع ، خاصة ان زمن الرواية يدور في اثناء حقبة مهمة من حقب التحول الاجتماعي التي اجتازها لبنان والمنطقة العربية آنذاك . والقارىء لذلك لا يحس في الاماكن التي صورها الكاتب ، في حي الخندق الغميق والجبل والمعهد الديني وبيوت الاصدقاء بما يسميه غالي شكري بالرائحة المميزة لهذا المجتمع (٢١). وكأن الاماكن اطار منفصل يتحرك ابطال الرواية بعيدا عنه . كما أن حدثا كونيا كنشوب الحرب العالمية الثانية يمر الكاتب على ذكره مرورا عابرا دون ان يرسم لنا انعكاسات تلك الحرب على ابطال الرواية وعواطفهم وافكارهم ومصائرهم كما يتجلى ذلك مثلا في روايتي « المصابيح الزرق » لحنامينه و « زقاق المدق » لنجيب محفوظ ، فكأن ذكرها زائد على السرد ولا صلة له مطلقا بالقصة ولم ترد الا « لمجرد انها قد وقعت فعلا في حياة المؤلف » (٢٢) .

ومع أن رواية « الحي اللاتيني » للكاتب نفسهجاءت قبل « الخندق الغميق » فانها لم تعدم الحس التاريخي والاجتماعي ، بل على النقيض من ذلك فان الهاجس القومي والتاريخي يشكل محورا رئيسيا من محاورها .

وقصة « الخندق الغميق » من ناحية اخرى بعيدة عن المونولوج الذي كان يؤلف العمود الفقري في قصة « الحي اللاتيني » وهذا ما جعل الرواية قريبة الى المفهوم التقليدي للحكاية . ورغم جمال اسلوب الكاتب وبساطته الواضحة فانه يظل طوال الفصول الروائية على مستوى واحد من الانسياب دون ان يصل الى درجات من التوتر كان يتطلبها تطور الحدث الروائي من مستوى الانسجام والتوافق الى مستوى التناقض والتفجر . فبدا الاسلوب كأنه يغلف الرواية من الخارج ولا ينبع من داخل مناخها ، مما أفقد القصة الكثير من حرارتها وصدقها .

بيروت ـ احمد محمود زين الدين

١٩ ـ الخندق الغميق ـ ص ٦٨ .
٢٠ ـ الخندق الغميق ـ ص ٦٥ .
٢١ ـ غالي شكري : المصدر نفسه ـ ص ٣٣ .
٢٢ ـ نازك الملائكة : المصدر نفسه ـ ص ١٢ .